الفصل الستون

العلماء المستجابة دعوتهم فى مصر وشيوخها وفضلاء الدهر فيها وأئمتها وخطباؤها

ـ الشيخ على الشمرلسى:

قطب علماء وصلحاء ومشايخ القاهرة وشيخ شيوخها وأعقلهم. إنه أهل ورع وأهل حال وهو من بليدة فى مصر تسمى «شمرلس». إلا أنه ولد أكْمَهَ[1] بأمر الله، ولكنه كان يلقى دروسه فى الجامع الأزهر فى أربعة مواضع وكان له اثنا عشر ألفا من التلاميذ وكان فريد دهره فى علمه، كما كان يدرس مرتين فى داره وهو من العلماء العظام المتبحرين الذين تحل على يديهم المعضلات. وهو ولى من أولياء الله ما فى ذلك شك، وقد اطلع على مسائل الشرع فى الكتب الأمهات وكان يشير إلى المسألة من المسائل ويعين موضعها فى الصحيفة والسطر. وأحمد الله أنى شَرُفْتُ بصحبته فهو فريد دهره فى فضائله وكراماته.

ومن كراماته أنه:

إذا سلم عليه أحد مرة واحدة فى عمره وأراد التعرف عليه كان يسأله عن اسمه وقريته واسم أبيه، حتى إذا ما قدم هذا الرجل عليه بعد خمس أو عشر سنوات وسلم عليه رد عليه قائلاً: وعليك السلام يا ابن فلان. ومن باب أولى إذا ما سلم عليه أحد من تلامذته رد عليه السلام قائلا: وعليك السلام يا ابن فلان. فهو يعرف أسماء تلامذته أجمعين.

ـ الشيخ أحمد العجمى:

كان فريد دهره فى علم الحديث، إلا أنه ليس ضريرا، وجاء على لسانه أنه كان يحفظ سبعين ألف حديث مما فى الكتب الأمهات القيمة مثل البخارى ومسلم، فقد كان أعجوبة دهره فى قوة حافظته.

---

(١) الأكمه: الأعمى. كَمِهَ من باب تَعِبَ كَمَهًا : عَمِىَ.

ـ شيخ الإسلام بولوى مصطفى افندى:

كان شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية، وطلب الصدر الأعظم كوپرلى منه استصدار فتوى بقتل دلى حسين باشا لفشله فى فتح قلعة «قندة» فى جزيرة كريت فقال بولوى افندى: أأفتى يا سيدى الوزير بقتل دلى حسين باشا؟ ولو كنت أنت قائداً ضعيف الشأن مثله ومضيت إلى جزيرة كريت ووفقت إلى فتحها وثبت تقصير حسين باشا حينئذ لا أستطيع كذلك أن أفتى بقتله، لأن الفتح والنصر من عند الله.

فقال الوزير كوپرلى: أنت لم تقطع برأى وقُلْتَ الله أعلم، إنك صاحب سجادة الآن.

فقال بولوى أفندى: حبذا أن أعزل نفسى من التصدر للفتوى وخرج من مجلس كوپرلى فأرسل بعض الأشخاص فى أثره إلا أنه لم يعد، ولم يصدِّق بعدها على فتوى قط. وعندما أسندت الفتيا إلى «أسيرى محمد أفندى» أصدر فى التو فتوى بقتل دلى حسين باشا فسجنوه فى قلعة «يدى قلة» وقتلوه فيها. ونفى بولوى أفندى إلى مصر وأسند إليه قضاء الجيزة ليعيش منه، وقد أذاع علم الفقه فى القاهرة وأصبح جميع علماء القاهرة من زمرة الفقهاء. وكأنما كانت داره مدرسة وكان حاتمى الكرم يقدم الطعام مرتين لجميع تلامذته، كما كان صالحا صاحب وقار.

ـ الشيخ عبد القادر افندى:

من بغداد وهو تقى ورع متضلع من شتى العلوم والفنون، بينما كان كتخدا إبراهيم باشا واليا على مصر قرأ عليه بين شواغله الكثيرة صحيح مسلم والبخارى وتفسير ابن جرير الطبرى. وكان فى زمانه بحر المعارف بل النعمان الثانى، وله أشعار بالفارسية والتركية تخلص فيها بـ «قادرى».

ـ الشيخ عبد القادر المغربى:

وإن لم يكن واعظ منبر إلا أنه حينما كان يعظ تلاميذه فى الأزهر كان جميع تلامذته يفيدون كثيرا مما يقول، إذ كان لكلامه عميق أثر فى النفوس.

ـ الشيخ أحمد المرحومى:

وهو من محلة المرحوم فى المنوفية، وهو من تلاميذ أستاذنا الشيخ «على الشمرلسى»، بيد أنه سلك طريق التصوف وكان له العلم اللدنى، أطال الله فى عمره.

ـ الشيخ يحيى المغربى:

كان يناظر «وانى[1] افندى» فى مجلس السلطان محمد الرابع[2] وأفحمه فى علم الحديث وعلم التفسير، وكان يتقاضى من خزانة مصر مائة أقجة يوميا منحة من السلطان وكان يلقى دروسا عامة فى الأزهر، وكان صاحب دعابة.

ـ الشيخ السادات أبو التخصيص:

سبق ذكره عند الكلام على مولده الشريف. لم يكن عالما ولا فاضلا، إلا أنه كان عاملا وثريا، عُرف بصلاحه وتقواه واشتهر بكرمه.

ـ الشيخ السادات على أفندى:

هو الأخر الأكبر للشيخ أبى التخصيص.

ـ الشيخ محمد البكرى:

من النسل الطاهر لأبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ، إنه مرشد كامل، عامل فاضل للسجادة البكرية. وكان صاحب حال فى علم الأسماء، وكان كريما زاده الله كرما.

ـ ابن الشيخ چلبى أبى المواهب:

كان زاهدا عابدا وهو الابن الأكبر للشيخ العزيز.

ـ الشيخ چلبى زين العابدين:

أصغر أبناء الشيخ العزيز إلا أنه كان ألْمَعِىَّ الذهن معروفا بالدعابة والظرف، وأهل القاهرة جميعا يحبونه.

---

(١) عالم عرف عنه تصلبه فى التعصب على أهل الأديان الأخرى وعلى المتصوفة. وهو غير وانى المعروف المولوى الفقيه الذى نقل صحاح الجوهرى إلى التركية. معجم الدولة العثمانية ص١٥٤.

(٢) السلطان العثمانى، حكم أربعين عامًا، وكانت وفاته سنة ١٦٩٢.

ـ الشيخ سيد برهان الدين:

وهو من قصبة فى لواء حميد ببلاد الترك، يسكن القاهرة منذ ثمانين عاما، وهو نقيب الأشراف، وعلاوة على أنه يوزع الصدقات والأطعمة على الغادى والرائح كان يوزع على الدوام خرقة على كل ضيف وكل فقير. إنه شيخ عظيم حاتمى الكرم.

ـ الشيخ سيد إبراهيم چلبى أفندى:

وهو ابن سيد على ابن الشيخ على الصفوتى بن سيد حسن ابن سيدى الشيخ إبراهيم الكُلْشنَى. وحسبه هذا شرفا فى نسبه وحسبه، ومن رأى وجهه الشريف مرة أحبه وتعلق به تعلقا شديدا وتلقى عنه تعاليم التصوف وأصبح من دراويش الكلشنية، لأن وجهه الشريف منور كمذهبه. إلا أنه كان على الدوام معتزلا، وهو صالحٌ كالصالحين من السلف. وكان على الدوام قابعا فى ركن العزلة، يخرج مرة فى العام ويمضى إلى تكيته ويخرج إلى المولد، وهو لا يغادر داره قط ولا يختلط بأحد من الناس والنفوس تنجذب إليه.

ـ الشيخ محمد كيسودار:

كان من قبل على الطريقة القادرية وكان يعرف بصاچلى محمد افندى (أى محمد افندى ذو الغدائر)، وفى ليلة مولد الكُلشنى عندما نظر إليه لم يتحمل جاذبيته فتطايرت غدائرهُ وخرج عن الطريقة القادرية ودخل الطريقة الكُلشنية وزوَّجه الكُلشنى من كريمته فأصبح صهراً له.

إنه درويش (إباحى المشرب) له التبحر فى شتى العلوم، له أشعار كثيرة بالعربية والتركية، كما كان وفير المؤلفات ومليح الخط، حسن العشرة لين الجانب، لبقا فى الحوار، كما كان أهل كرم وسخاء، يحج بيت الله الحرام مرة كل ثلاثة أعوام، وغالبا ما كان يمضى إلى مكة سيرا على قدمه.

ـ الشيخ على الخراشى:

من بلدة تسمى «خراش» نسب إليها، أما اسمه الحقيقى فهو ( )[1]، وهو محدث ومفسر مرموق المنزلة بين المحدثين والمفسرين، وهو يحفظ عن ظهر قلب صحيح

(١) بياض فى الأصل.

مسلم وصحيح البخارى والقاموس للأخترى والصحاح للجوهرى، وفصوص الحكم لمحيى الدين بن عربى، وعلاوة على ذلك كان يدرس شتى العلوم فى الأزهر وله تلاميذ يربون على الألف. وكان واسع المحفوظ، وهو شيخ القراء فى الجامع الأزهر.

وتلاميذه الذين يَرُبُّونَ على الألف يقرأون القرآن الكريم بالقراءات المختلفة. إلا أنه حينما كان يلقى دروسه يكون منفعلا كالشرارة فياضًا، وكل من يلقى السمع إلى دروسه تنقش فى ذهنه، كما ينقش فى الحجر، ولا تمس حاجته إلى أن يسمع الدرس ثانية.

ـ الشيخ العياشى:

تتلمذ للشيخ على الشمرلسى، وكان يلقى الدرس العام فى جامع السلطان المؤيد، وكان صاحب فصاحة وإبانة، كما كان كريما بكلامه، تقيا ورعا. ولأنه كان يتكلم اللغة التركية انعقدت أواصر الصلة بينه وبين العلماء العثمانيين مما أثار عليه حسد الحاسدين، إلاأنه كان حليما صبورا هادئ الطبع.

ـ الشيخ ( )[1] العبارى:

أهل تقوى وورع، عالم عامل فاضل، اعتكف فى عقر داره بزاوية ( )[2] بالقرب من سوق الصلبية[3]، وقد تنبأ بإسقاط أحمد باشا. وهو لا نظير له فى مصر.

ـ الشيخ أحمد الأسكندرانى:

وهو من أكمل الكمل فى مصر، رخيم الصوت وليس بد من وجوده عند إقامة مولد النبى فى شهر صفر، فهو عندما ينشد الآلاف من القصائد فى مدح الرسول ﷺ وتائية عمر بن الفارض بصوت مرتفع جهورى يدخل الصوفية فى نشوة الوجد كأنما أصابهم الصرع. إن فى أنفاسه شيئًا عجيبًا يوقع من يلقى السمع إليه فى الوله والحيرة. لقد نال الفيض من الشيخ «على العريانى» وهو صالح من صلحاء الأمة ويزور بيت الله الحرام مرة كل عامين أو ثلاثة، وقد ذهب ذات مرة فى قافلة من عشرة أو خمسة عشر جملا، وبعد الطواف مضى إلى قبر المصطفى ﷺ فى المدينة المنورة، وبينما كان يقف قبالة المقصورة الشريفة صاح بأعلى صوته قائلاً: الغوث يا ملاذ العاجزين، وكنت حاضراً

(١، ٢) بياض بالأصل.

(٣) أحد أحياء القاهرة ولا يزال قائمًا إلى الآن بقسم الخليفة.

آنذاك فدخلتنى الدهشة والوله والحيرة. وفى طريق عودتنا إلى مصر كنت معه رفيق الطريق وكان معنا أمير الحج أوزبك بك فكنا نطيب نفسا بالاستماع إليه وهو ينشد القصائد فى مدح النبى ﷺ، وكان إذا ما تسلل السأم إلى نفوس الناس من مشقة الطريق كان سرعان ما يزول حينما يستمعون إلى قصائد الشيخ الأسكندرانى فى مدح خير الأنام ﷺ، فكان كل منهم يدعو له بالخير ويقبل يده. إنه عالم نحرير.

ـ الشيخ بكرى زاده أفندى:

إنه سليل أسرة عريقة، فهو من نسل أبى بكر الصديق رضى الله عنه. كان راسخ القدم فى علم القصائد والمدائح النبوية، حتى إنه نظم قصيدة فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تتلى فى ليالى رمضان بين صلاة التراويح بدلا من التسبيح. وكان من أعاظم العلماء والفضلاء ذوى الاحترام.

ـ نقيب الأشراف السيد محمد أفندى ابن السيد برهان الدين افندى:

وهو ابن المرحوم برهان الدين افندى نقيب الأشراف، إنه عالم فاضل من تلاميذ المدرسة السليمانية[1]، وكان مليح الخط، انتقل والده برهان الدين من دار الفناء إلى دار البقاء وهو فى المائة وأربعين من سِنيه. وعندما آلت إليه أملاك أبيه على ضفاف بركة الفيل وجدت الحُجج والوصايا لدى الشيخ، وفى ذلك الوقت كان جان بولاد زاده واليًا على مصر، وطعن فى صحة هذه الوثائق وأسند مدارسهم وقضاء تكيتهم إلى شخص آخر، واضطر الشيخ إلى التنازل عن ملكيته لبلدتى البساتين والفرزدق؛ لأن الاحتفاظ بهما يكلفه ضرائب باهظة لا قبل له بسدادها، ونزلت به كثير من الشدائد وفى النهاية عندما عزل جان بولاد زاده حسين باشا طالب الشيخ باسترداد حقه؛ فاسترد منه الكثير، وتم الصلح بينه وبين جان بولاد زاده ومضى الشيخ إلى قلعة الإسكندرية ليتوجه منها إلى الأستانة فوصل إليها وفى معيته الجند المصريين الذين كلفوا بفتح «قمانچه» بعد أن عادوا سالمين مظفرين فأصيب بالحمى المحرقة التى أحرقت جسده الرقيق ولم يطفئ نار حرقة هذه الحمى ماء أربعين نبعا فانطوى دفتر عمره واحترق. وانحنت ظهور مريديه حزنًا عليه، ودفن فى ضريح الأمير البخارى خارج باب أدرنه[2].

---

(١) المدرسة السليمانية: نسبة إلى السلطان سليمان القانونى، ومقرها إستانبول.

(٢) باب أدرنه: أحد أبواب مدينة إستانبول القديمة.

ـ الطبيب بيلونى زاده:

كان يدرس لطلبة مستشفى قلاوون كتاب «قانون الشفاء» و «تذكرة داود» يومين فى الأسبوع، وكأنه فيثاغورث علم الطب، وكان من أهل التقوى والكرم، من مضى إلى داره وشرف بلقائه جَسَّ نبضه وأعطاه الأدوية والمعاجين من الأطعمة والأشربة كان طبيبًا له البراعة فى الطب، ندر نظيره فى مصر.

ـ الشيخ ( )[٢] خطيب الجامع الأزهر:

إنه رجل أهل تقوى وعبادة.

ـ الشيخ شاهين خطيب جامع الدهيشة:

شيخ من أهل التقوى والورع، ولوعظه عميق الأثر فى النفوس.

وهناك **الشيخ «سيد أحمد جزى»:** خادم المحكمة.

و**«سيد تاج الدين»:** خادم المحكمة كذلك.

و **«إسحق زاده»** قاضى العسكر وهو من علماء الترك الذين تضلعوا من شتى العلوم.

و **«خصم عبد الباقى أفندى»:** قاضى العسكر وهو كاتب وصاحب سلوك من فضلاء الدهر بلغ من تقواه أنه لم يصل صلاة فى غير وقتها قط طوال حياته.

وقاضى العسكر «كبيرى زاده»: وهو رجل دَيِّنٌ واسع العلم بأحكام الشرع الشريف.

و **«تذكرجى أفندى»** قاضى العسكر: وهو واسع المعرفة بالتواريخ وهو نَحْوِىٌّ إمام، وعلى علم بتحصيل المال.

«عشاقى زاده» قاضى العسكر: وهو من السادات الكرام، نزيه، لا يخشى فى الحق لومة لائم ولا يحيد قيد أنملة عن جادة الشرع الحنيف، كان قاضيًا رابط الجأش ثابت القدم.

«حفظى أفندى»، قاضى العسكر وكان حافظا لكلام الله وشاعراً واسع العلم بشتى العلوم الدينية.

---

(١) باب أدرنه: أحد أبواب مدينة إستانبول القديمة.

(٢) بياض فى الأصل.

وبين هؤلاء الذين أسلفنا ذكرهم آلاف ممن كانت لهم قدم راسخة فى شتى العلوم والفنون.

وإذا ما حاولنا أن نعرف بشىء من كرامات وفضائل هؤلاء العلماء لاقتضى ذلك منا تأليف مجلد قائم بذاته، لذا عرضنا لذلك على وجه الإجمال وبقدر ما أتيح لنا من سياحاتنا فى تلك البلاد فالمعذرة متسعة لنا فى هذا الخصوص. ولكن لا شك فى أن لكبار المشياخ كرامات وقدرة على مكاشفة الغيبيات.

ـ كرامات صبيان الغربية ـ

حينما كان كتخدا إبراهيم باشا واليا على مصر نَبَّهَ على جميع معلمى الكتاتيب بالدعاء من أجل حملة «قمانچة» وكانو يجتمعون مرتين فى الأسبوع فى الجامع الأزهر للدعاء، وبعد ذلك ـ بناء على أمر الوزير ـ بدأوا يدعون الله فى جوامع السلاطين ولما طالت مدة فتح «قمانجسه» وتأخرت وصول بشائر الفتح دب دبيب اليأس فى نفوس الناس فتقاعسوا عن الذهاب إلى المساجد للدعاء.

واتفق ذات يوم أن كان إبراهيم باشا يتجاذب أطراف الحديث مع إسحاق زاده قاضى العسكر فى مصر فقال له الباشا: إن معلمى المدارس الابتدائية طوع أمرك فنبه عليهم بأن يداوموا على الدعاء للفتح. فقال قاضى العسكر: لا بأس فلنذهب إلى المحكمة ولنستدع جميع معلمى المدارس ولنضرب كلا منهم أربعين أو خمسين عصا على ركبتهم، إذْ إنه لا وجود للفلكة فى البلاد العربية، ولأن جميع الفلاحين لا يلبسون سراويل فإنهم إذا ما ضربوا على أرجلهم انكشفت عورتهم، لذلك يضرب الفلاحون على ركبهم وإليتهم بعصا من شجر الشوحط[1]. فضرب المعلمون الفقراء ضربا مبرحا على إليتهم وركبهم وعادوا إلى مدارسهم وهم يئنون من شدة الألم فجعل هؤلاء يضربون الصبيان بعصا الشوحط على نفس الموضع الحساس من أجسامهم فجزع الصبيان من الألم وبعد العصر خلدوا إلى الراحة فتملأ بعض الصبيان فى موضع وأثناء لعبهم تنامى إلى علمهم أن ضربهم إنما كان بإيعاز من الباشا وقاضى العسكر فجعلوا يدعون الله عليهما، فقال بعض المنصفين منهم: إن الباشا يتصدق علينا فلا ينبغى أن ندعو الله

(١) الشوحط والنَّبْعُ والشَّرْيانُ شجرة واحدة، ومنه تصنع القِسىّ والسهام. لسان العرب (شحط).

عليه، أما القاضى فهو رجل خسيس لئيم، كما أنه ضرب معلمينا ضربا مبرحا ولذلك ضربونا، فتعالوا نصلى صلاة الجنازة على قاضى العسكر. وجاءوا بخرق جعلوها على هيئة الجثة ووضعوها على محفة من الخشب ولما رأى مئات الآباء ذلك من أبنائهم منهم من ابتسم ومنهم من ضحك حتى استغرب ومنهم من قال لا إله إلا الله، وبينما كانوا يمرون بالأسواق السلطانية سألهم أهل السوق قائلين:

«اش هذا يا صبيان» فقالوا: إنها جثة قاضى العسكر. فأغلظ لهم القول بعض الأهالى، والبعض الآخر لم يكترث. وعلى هذا النحو اجتمع جميع الصبيان خارج المدينة فى موضع فوق الرمال وصلوا صلاة الجنازة على تلك الخرقة ودفنوها إلى جانب الإمام الشافعى.

ومن ناحية أخرى اشتكى قاضى العسكر ألما فى قلبه وأسلم الروح فى صبيحة اليوم التالى، وبينما كانوا يدفنونه إلى جانب الإمام الشافعى فى نفس الموضع الذى دفن فيه الصبيان خرقتهم ظهرت قطع منها من الأرض فدفنوها ثانية والقاضى عسكر فى ذات الموضع.

سر آخر عجيب

والصبيان الاثنى عشر الذين جعلوا تلك الخرقة على هيئة قاضى العسكر وصلوا عليها صلاة الجنازة وحملوها كانوا نجباء وهم الآن ومنذ ذلك اليوم بُكْمٌ، كما أصبحوا عُرَاةً مجاذيب يهيمون على وجوههم فى صحارى مصر وأراضيها الخَرِبَة. إنه لَسِرٌ إلهى عجيب.

وقد أخذ إبراهيم باشا الخوف مما وقع وأدرك أنه هو السبب فى ضرب هؤلاء الصبيان فتصدق على جميع معلمى وصبيان المدارس حتى أصبح شحاذهم غنيا يعيش فى سعة ورغد.

الفصل الحادى والستون

ذكر أولياء نعمتى من البكوات والأعيان سليلى الأسر العريقة

منهم أمير الحج (اوزبك بك أبو الشوارب) وهو رب أسرة عظيمة وله من الجند خمسمائة. إنه بك.